

## العربية بين التأثيل والقداسة

الأستاذ: بن سعيد كريم<sup>1</sup>

تاريخية اللغة العربية:

إن الخوض في شؤون اللغة العربية، يفرض لزاما العودة إلى المشارب الأولى التي نهلت من موردها هذه اللغة، وهو ما يفضي بنا إلى استقراء محطات تاريخية تستنطق تاريخيتها اللغوية في مقاربة منهجية ترسو على نتائج يستأنس إليها لربط النسيج اللغوي في شكله الراهن.

ولعل المبتدأ يكون من الحقبة الجاهلية، فالموروث اللغوي شعرا أو نثرا كان الذي وصلنا الفترة هذه يقدر زمانيا ما بين مائة أو مائة وخمسين سنة على أكثر تقدير؛ أما البدايات الأولى بمنشئها ومرباها لم يكن لنا فضل الاتصال بها، فأسياب الوصل تقطعت بنا لظروف تاريخية تبقى في حكم المجهول، وأرى أنه من الاعتساف البحث في هذه الحلقة المفقودة في عقد اللغة العربية.

فالمنطلق عمليا قلت؛ فهو مما وصلنا قبيل ظهور الدين الإسلامي الحنيف (مئة-مئة وخمسين سنة)، فالشعر والنثر كانا الوعاء الذي نضحت به العربية هذا الرده من الزمن، فضلا عن نقوش وأثار مادية كانت حقا خصبا لإثراء الدرس اللغوي، استقرئت، وأخرى بقيت مدفونه في أعماق الرمال وسعت شرخا بيننا وبينها تواصليا، والمؤمل هو الوصول إليها يوما واستنطاق هذا المجهول، وتسليط كثير الأضواء على مساحاته المظلمة....

إن المجتمع الجاهلي كان مجتمعا قبليا كرس العيش في ظل القبيلة وما يفرضه منطق سطوة القبيلة من الائتثار لأوامرها والانتهاج لنواحيها، من هذه السطوة الخضوع للسان القبيلة، وهو ما يعني أن لكل قبيلة لسانا، فالسليقة هي التي طبعت التواصل اللغوي بطابعها.

1 كلية الآداب واللغات والفنون. جامعة - سعيدة - الجزائر.

فالسؤال الذي يفرض نفسه إلحاحا، هو كيف انصهرت هذه التعددية اللهجية في لهجة واحدة، هي لهجة قريش؟ ولمقاربة هذه الإجابة، نورد بعضا من الأدلة عليها تؤول إلى الإقناع بعضه، وأولها العامل الديني، فالقبائل العربية بمختلف مشاربها، واتجاهاتها كانت تؤم مكة لأجل ممارسة المناسك الدينية، ومنه أصبح في حكم البدهي التعامل بلهجة قريش لغرض التواصل مع أهلها الأصليين، وثانيها في البعد التجاري وما يحيل إليه من تعدد المأرب، وما يقام من أسواق ثقافية وأدبية الغرض من ذلك ابتغاء الاحتكام إلى فصيح الكلام، والذي كانت تمثله عمليا لهجة قريش من هذه الأسواق، سوق عكاظ ومربد وغيرهما من المنابر اللغوية التي كانت تنشأ للغرض هذا كما كان من المواصفات التي تم الاحتكام إليها أحد أهم معايير تحديد رئيس القبيلة التضلع البياني وفصاحة اللسان دورها في إنجاح القيادة لذا وجب أن يكون رئيس القبيلة متكلمًا فصيح اللسان "وتلعب البراعة البيانية وفصاحة اللسان دورها في إنجاح القيادة، لذا وجب أن يكون رئيس القبيلة متكلمًا فصيح اللسان"<sup>1</sup>، وهي الشروط التي مثلتها قبيلة قريش فكان منها الفصحاء والبلغاء والبيانيون فهي نأت بجانبها عن مخالطة الأعاجم وحافظت على لسانها خالصة من كل شائبة فيما تقدم من دواع وغيره أضحي إحدى الأدوات التي أسهمت في تصيير الوعاء اللغوي الجاهلي المتعدد وعاء متحدًا، واحدا بعدما كان متعددًا مع بقاء بعض البصمات والتباينات شاخصة إلى حد اليوم وهو ما تحيل إليه القراءات القرآنية المختلفة والترادف اللغوي.

هذه هي المحطة التي رست عندها عربية قريش قبيل ظهور الإسلام، لتأتي بشارات ظهور الدعوة المحمدية، وما جاءت به من إحداث ثورة في نمطية العيش العربي بمختلف تجلياته العقدية والمادية الثقافية الاجتماعية. ومن هذا التحول ترسيخ فعل الكتابة، فنحن واجدون هنا أن النبي محمدا صلى الله عليه وسلم، تحلق من حوله زمرة من الكتاب اختلفت الروايات في عددهم فمن ستة وعشرين إلى أربعين ثم إلى اثنين وأربعين، قال الكتابي "وأوصلهم القرطبي في تفسير، إلى ستة وعشرين وأوصلهم الشبر أملي في كتاب القضاء من حاشية على

1. عفيف عبد الرحمن الشعر الجاهلي حصاد قرن ط1، دار الجريد 2007 ص24

المنهج في فقه الشافعية إلى أربعين وأوصلهم العراقي إلى اثنين وأربعين فقال:

كتابه اثنان وأربعونا      زيد بن ثابت وكان حيناً  
كاتبه وبعده معاوية      ابن أبي سفيان كان واعيه<sup>1</sup>

فهذا التضارب في العدد حول الكتاب يبين عن تأثير فعل الكتابة الذي سيحفظ خصوصية وسر اللسان العربي، خاصة مع نزول القرآن الكريم باللسان العربي قال تعالى: "إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون"<sup>2</sup> و"وهذا لسان عربي مبين"<sup>3</sup> وغيرهما كثير من الآيات القرآنية الكريمة التي جاءت توجهاتها الربانية توضح عليّة اللغة العربية على سائر لغات عصرها، لأن الله عز وجل حباها بذلك وفضلها على عديد من لغات عصرها والألسنة المتداولة حينها، فهذا الاصطفاء الإلهي سيحدث شأنًا عظيمًا لعربية كانت مشتتة لا لون لها ولا رائحة بين قبائل تتناحر فيما بعضها لأتفه الأسباب ؟

فكما أسلفت بزغ الإسلام ولما يكن للعرب حضارة تميزهم من غيرهم سوى حضارة البيان تناقله الشفوي في جل أحواله، على أنه لا يستقى من مفهوم عموم الكتابة تجريد مجتمع ما قبل الإسلام منها، أي من الكتابة فآثار النقوش وما احتوته من رسم خطي والمواثيق والعهود التي كتبت على جرائد النخل وسطوح العظام وغيرهما من الوسائل التي استعملت لغرض الكتابة، تقف حججا تدفع كل صدود وإنكار في هذا المنحى، إلا أن مساحتها جاءت محصورة في نطاق ضيق لا يمكن التعامل معها كظاهرة ثقافية واجتماعية باستثناء الحضر من عرب الحيرة والغساسنة لتواصلهم مع الروم والفرس. فالتدوين بمفهومه الشمولي والعلمي وما يحيل إليه من تأليف وتصنيف وتائيل منهج صناعة الكتابة جاء من دون ريب مع الإسلام الذي أخرج العرب من دائرة الظلام إلى أفق النور فأصبحت الكتابة تحتل مساحات عريضة في المجتمع العربي الإسلامي، مما رشحها لأن تصبح ظاهرة ثقافية لم يعرفها العرب إلا مع الإسلام فنزول القرآن الكريم وما أنطلى عليه من مضامين قرائية وكتابية تحيل إليها فحوى كثير السور والآيات

1د أسعد طلس، تاريخ العرب المجلد الأول دار الأندلس الجزء الثاني، ص ص 116، 117  
2 يوسف: الآية 2

الكريمات وخير ما يجسد ذلك نزول أول آية على النبي محمد صلى الله عليه وسلم "اقرأ بسم ربك الذي خلق خلق الإنسان من علق اقرأ وربك الأكرم<sup>1</sup> " الرحمن علم القرآن خلق الإنسان علمه البيان<sup>2</sup>، "ن والقلم وما يسطرون<sup>3</sup>" وغير هذه الشواهد كثيرة مما صدح به القرآن الكريم فبالعودة إليها تترسب الفكرة التي طرحناها بسطاً للنقاش فكرة أدوات الكتابة والقراءة فجاءت هذه طفرة تؤسس لصنيع حضاري إسلامي التوجه إنساني البعد ولعله لا يغرب على نابه أن القرآن الكريم جاء مما جاء من أجله قمة بلاغية وبيانية في تحد لقبائل عربية وثنية تميزت بضروب الكلام وأفانين القول، قال تعالى: "قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً.<sup>4</sup> كما قال " قل فاتوا بعشر سورة مثله مفترين وأدعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين<sup>5</sup> .

فالقرآن الكريم من هذا سمت، أي إعجاز بياني جاء يقعد العقل البشري في حدوده الضيقة بإبقائه عاجزاً عن مجازاة هذا الضرب الإلهي من البيان.

وبنقطة العرب على أمم الأعاجم فاتحين وما ترتب عنه من نقشي ظاهرة اللحن التي أصابت العربية في قوامها " فلما جاء الإسلام وفارقوا الحجاز لطلب الملك، الذي كان في أيدي الأمم والدول وخالطوا العجم تغيرت تلك الملكة بما ألقى إليها السمع من المخالفات التي للمتعبين من العجم والسمع أبو الملكات اللسانية ففسدت بما ألقى إليها مما يغيرها، لجنوحها إليه باعتياد السمع<sup>1</sup> وهو ما حدا بعلماء العرب إلى الخوف الشديد على العربية وخوفهم كان أشد من وراء ذلك على فهم القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف فلم يؤلوا جهداً في الانطلاق لتأسيس حركية تعقيدية، كان رائدها أبا الأسود الدولي بإيعاز من الخليفة علي رضي الله عنه وكرم وجهه ثم جاء تاليه الخليل أبو القاسم الزجاج بن أحمد الفراهيدي ثم سيبويه فأبو علي الفارسي<sup>2</sup> وخشي أهل العلوم منهم أن تفسد تلك الملكة رأساً ويطول العهد بها فينغلق القرآن والحديث على المفهوم فاستتبطوا من مجاري كلامهم قوانين لتلك الملكة مطردة شبه الكليات والقواعد، يقيسون عليها سائر أنواع الكلام ويلحقون الأشباه بالأشباه<sup>3</sup> فاصطلحوا على تسميته إعراباً...

4النحل الآية 103.

1 هود الآية 13.

وصارت كلها اصطلاحات خاصة بهم فقيدوها بالكتاب وجعلوها صناعة لهم مخصوصة<sup>1</sup> هذا ما نعرف عليه اصطلاحا بعلم النحو، أما التأليف اللغوي فقصب السبق يرجع فيه الفضل إلى الخليل بن أحمد الفراهيدي بتأليفه معجم العين، وهو يعد بحق دراسة نوعية للغة العربية في مستواها الصوتي فهو قد تجاوز بإنجازه هذا علماء عصره بكثير من مساحات الزمن، وهو مستوى لم يصله حتى علماء الغرب إلا حديثاً، "كان سابق الحلية في ذلك الخليل بن أحمد الفراهيدي ألف فيها كتاب العين فحصر فيه مركبات حروف المعجم كلها، من الثنائي والثلاثي والرباعي والخماسي، وهو غاية ما ينتهي إليه التركيب في اللسان العربي"<sup>2</sup>، وسار على نهجه الجوهري في مؤلفه الموسوم بـ "الصاح"، إلا أن مبتدأه كان حرف الهمزة، "وألف الجوهري من المشاركة، كتاب الصاح، على الترتيب المتعارف لحروف المعجم، فجعل البداية منها بالهمزة وجعل الترجمة بالحروف على الحرف الأخير من الكلمة، لاضطرار الناس في الأكثر إلى أواخر الكلم، فيجعل ذلك باباً، ثم يأتي بالحروف أول الكلمة، على ترتيب حروف المعجم أيضاً، ويترجم عليها بالفصول إلى آخرها وحصر اللغة اقتداء بحصر الخليل"<sup>3</sup> وهو السبيل نفسه الذي سلكه ابن سيده الأندلسي في: "المحكم" مع شيء من الإضافة في إثارة الدرس الاشتقاقي والصرفي: "ثم ألف فيها من الأندلسيين ابن سيده من أهل دانية، في دولة علي بن مجاهد، كتاب المحكم على ذلك المنحى من الاستيعاب، وعلى نحو ترتيب كتاب العين وزاد فيه التعرض لاشتقاقات الكلم وتصاريفها، فجاء من أحسن الدواوين، ولخصه محمد بن أبي الحسين صاحب المستنصر من ملوك الدولة الحفصية بتونس، وقلب ترتيبه إلى ترتيب كتاب الصاح في اعتبار أواخر الكلم 7-".

وبناء التراجم عليها فكانا توأمي رحم وسليبي أبوة<sup>4</sup> ثم يتوالى التأليف المعجمي مع كراع في "المنجد" وابن دريد في "الجمهرة" وابن الأنباري في: "الزاهر" والزمخشري في "البلاغة" وراح العرب بعد ذلك يخوضون بحثاً في فقه اللغة، فظهر الثعالبي: "فقه اللغة" وبدرجة أقل

1 ابن خلدون المقدمة ص 634.

2 المرجع نفسه الصفحات نفسها.

3 المرجع نفسه الصفحة 636.

4 المرجع نفسه الصفحة نفسها.

عن سابقه صدر للسكيت، "الألفاظ" و"ثعلبة" الفصيح" وفي علم البيان (علم البلاغة، علم البيان، علم البديع) كان غاية التأليف عند السكاكي في "المفتاح" ويستظهر بعده كتب تدور في فلكه وتتهل من فيض علمه "كالمصباح" لابن مالك و"الإيضاح" لجلال الدين القزويني، و"الترخيص" فعدت بحق هذه المؤلفات، اللبانات الأولى التي بنى عليها التأليف اللغوي أساساته فسر هذه الحركية التأليفية كان بدفع من الرغبة في محاولة مقارنة الأعجاز القرآني واستيفاء معاينة ومراميه في مستويها اللفظي والدلالي: "واعلم أن ثمرة هذا الفن إنما هي في فهم الإعجاز من القرآن لأن إعجازه في وفاء الدلالة منه بجميع مقتضيات الأحوال منطوقة و"مفهومة" وهي أعلى مراتب الكمال"<sup>1</sup> إذن فهذا السبيل التألفي المتدفق في اللغة العربية وعلومها، كان بدافع ديني (كما أسلفت - بغية قراءة القرآن الكريم قراءة صحيحة ثم لتذهن توجهاته الإلهية أو مقاربتها على الأصح، لأن الله عز وجل تفرد بتأويل القرآن الكريم، قال تعالى: "هن أم الكتاب وأخر متشابهاً فأما الذين في قلوبهم زيغ فيتبعون ما تشابه منه ابتغاء الفتنة وابتغاء تأويله وما يعلم تأويله إلا الله والراسخون في العلم يقولون أئنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولوا الألباب"<sup>2</sup>.

وفي السياق المتقدم ينضاف السعي إلى المنهج نفسه مع الحديث النبوي الشريف على المستويين البنائي والدلالي. فكان هذا إيذاناً بحركية تأليفية مست اللغة العربية في مستوياتها المختلفة، الصوتية، وما تحيل إليه من توصيف علمي للحرف العربي والوقوف عند مواطن الشدة والرخاوة والجهر والهمس وغيرها وكيفيات تنقلها عبر الموجات الصوتية أثناء عملية التواصل الإنساني فالمستوى النحوي الذي يعني بتركيب بنائية النص في ظل معيارية خاصة تعمل على تألف الأجزاء بعضها ببعض لتبدو في شكلها المنسجم المنسق

أما المستوى الصرفي فميدانه البحث في الجذور الأولى التي تكون مصدراً للعملية الاشتقاقية، والفائدة التي تستقى من هذا المستوى اللغوي أي المستوى الصرفي هي إثراء اللغة بشحنها بنفس متجدد يديم حياتها ويعينها للتكيف مع الوضعيات اللغوية المتجددة، أما المستوى

1 المرجع نفسه الصفحة 637.

2 آل عمران الآية 7.

المعجمي فالاهتمام يكون في إيجاد وشائج الاتصال بين الرمز وما يوحي إليه في العملية اللغوية، من انزياح المعنى بأيقونات عرفية أو وضعية أو دلالات تخيلية ترميمية وما يفسح المجال لتموقع المعنى الأساس والعرضي والأسلوبي.

كان هذا المسعى لأجل تأطير اللغة العربية، فهي بمثابة المقدس فصونها هو في حد ذاته صون لغة القرآن الكريم، وهي اللغة التي يبعث عليها أهل الجنة فهذا الإجلال وهذه الهالة التي سيجت بها العربية درءا لها من كل شائبة حفاظا على هذا الموروث اللغوي فمن سلبقتها التداولية التي يطبع أديمها صفاء مشاربها إلى علميتها وما حظيت به من كبير اهتمام ما هو في المحصلة إلا جهد يصب في حماية اللسان العربي وتداوليته خالصا من كل شائبة.

#### المراجع المعتمدة:

- 1-القران الكريم
- 2-د/عفيد عبدالرحمان ' الشعر الجاهلي حصاد القرن ط:1 دار الحرير 2007
- 3-د/أسعد طلس,تاريخ العرب المجلد الأول الجزء الثاني,دار الأندلس للطباعة والنشر من دون طبعة
- 4- لآبن خلدون المقدمة ,دار القلم بيروت لبنان ط: السابعة 1989